الشرق الأوسط
صحيفة العرب الأولى

صفية بنت زقر لـ«الشرق الأوسط»: الفنان السعودي وصل إلى العالمية

الفنانة السعودية صفية بن زقر (الشرق الأوسط)

لطالما كانت الفنانة السعودية صفية بن زقر على اتصال عميقٍ بمسقط رأسها مدينة جدة وموروثها العتيق، وهي التي تحمل سيرة فنية استثنائية تجعلها واحدة من أهم الأسماء الفنية المعاصرة، بيد أن ظهور أحد أعمالها في بينالي الدرعية 2024 - المقام حالياً - هو أمر لافت وجاذب للزوار.

حاورتها «الشرق الأوسط» عن رؤيتها الفنية بعد هذه السنوات الطوال. وبسؤالها عمّا ينقص الفنان السعودي للوصول إلى العالمية، تقول: «لقد وصل ولا ينقصه شيء».

«تراثنا» في البينالي

هي مجموعة صفية بن زقر التي تظهر في بينالي الدرعية (1997-1999). وهي عبارة عن سلسلة من المطبوعات

التفصيلية بتقنية الحفر الضوئي، التي تصوّر تعقيدات وثراء اللباس التقليدي لمختلف قبائل المملكة ومناطقها، من خلال 39 صورة، قد سبق المشروع بحثٌ مكثفٌ في تاريخ الأزياء المختلفة وأنماطها وألوانها وتطريزاتها وأقمشتها في أجزاء مختلفة من البلاد، حسب المعلومات التي تسلّمتها «الشرق الأوسط» من فريق بينالي الدرعية.

وعلى سبيل المثال، تُزيّن الخيوط الذهبية والحرير الأزياء الاحتفالية الحجازية، التي تظهر فيها العروس متوّجة بغطاء رأس مطرّز، كما صُوّرت امرأة عسيرية في زيّ من الكتان والقطن الذي يُستخدم في الحياة اليومية، مع قبّعة من القش للحماية من حرارة الشمس. وهذه الصور أنتجت في طبعة محدودة مكوّنة من 30 مطبوعاً، وهي ذات أهمية كبيرة باعتبارها وثائق مفصّلة وشاملة للتراث الشعبي السعودي. كما تنقل المتلقي في رحلة شاملة عبر مختلف التغيّرات التي طرأت على الأزياء التقليدية طيلة القرن العشرين، بتأثير من الإنتاج الصناعي للملابس وحركة العولمة.

توثيق فني

بسؤال صفية بن زقر عن ظهور هذه السلسلة في بينالي الدّرعية، تؤكد سعادتها بذلك، مشيرة إلى أن «تراثنا» خاصة بمجموعة المنصورية، وعنها تقول: «هي لوحات مائية أُصدِر منها على ورق بطريقة الحفر إصداراً محدوداً، وقد وثّقت كل لوحة منها أحد الملابس التراثية لمناطق المملكة العربية السعودية المختلفة للنساء والرجال، وحرصتُ من خلال المجموعة أن أوثّق بالرسم صورة حقيقية وواقعية للملابس القديمة، كما كانت تُلبس آنذاك، لتتعرّف عليها الأجيال الحديثة، ولتبقى في عين المتذوّق الفني وذاكرته جزءاً من تراثه».

من مجموعة «تراثنا» المعروضة حالياً في بينالي الدرعية (الشرق الأوسط)

الولع بالتراث

وعن شغفها بالاستلهام من التراث ومكوناته، توضح أنها حين عادت إلى السعودية بعد إكمال دراستها الثانوية، تفاجأت باختفاء كثيرٍ من العادات وطرق الحياة التي شاهدتها حين كانت صغيرة. ومن هنا تبلورت رؤيتها الفنية ووجدت الحلقة المفقودة ما بين التراث والثقافة، وعن ذلك تقول: «وجدت هدفاً يُلهمني لرسم وتوثيق العادات والتقاليد خوفاً من اندثارها، وحرصاً من أن يُركن هذا التراث في المخازن».

«هي علاقة الروح بالجسد»، هكذا تصف صفية علاقتها بالفن بعد هذه الرحلة الطويلة، مؤكدة أنها تفخر بجميع الخطوات التي مرّت بها. كما ترى أن كل عمل فنيّ انتهت منه كان نقطة فاصلة في حفظ التراث السعودي. وعن رؤيتها للحراك الفني المزدهر حالياً في البلاد، تقول: «إنه رائع وواعد، ومتصل مع المجتمع أكثر من السابق، وهذا يدل على وجود عينٍ متقبلة ومنفتحة من قبل المتلقي في المملكة، وعين أخرى متعطشة لمعرفة المزيد من المتلقي خارج المملكة».

بدايات

وُلدت صفية بن زقر في قلب مدينة جدة القديمة عام 1940، وكأن المدينة العتيقة بمبانيها وقاطنيها قد تسربت إلى روحها مع أنفاسها الأولى، فنشأ بينهما رباط وثيق اشتد قوة مع مرور السنين. وفي أواخر عام 1947 انتقلت مع أهلها إلى القاهرة، لتعود مجدّداً إلى جدة عام 1963، وتجد العديد من التغيّرات؛ إذ بدأ أهل المدينة بالنزوح إلى المنازل المسلّحة وترك عاداتهم المتوارثة، إلى جانب استبدال بأزيائهم المميزة ما يساير الموضة الحديثة، ولم يكن في يدها إلّا استرجاع الماضي بريشتها، فبدأت بجدية تامة لإعادة تكوين المدينة بأبنيتها وسكانها، وأنشطتها وأحداثها، وكذلك عاداتها وتقاليدها.

رحلة فنية ثريّة

تُعدّ صفية من أوائل مؤسسي الحركة التشكيلية في السعودية. بدأ مشوارها الفني الطويل بأول معرض لها في عام 1968 حيث أقيم في مدرسة دار التربية الحديثة بجدة. وهذا المعرض كان تجربة ناجحة خاضتها بمجهودها الخاص في تحضير موقع العرض، حين لم تكن هنالك صالات عرض متخصصة، فبدأت بتجهيز مدرسة البنات الخاصة على مستوى قاعات العرض في الخارج وعلى قدر الإمكانات المتاحة حينذاك.

وبعد النجاح الكبير لمعرضها الأول، توالت معارضها المحلية التي أقامتها في مدينة الرياض وجدة والظهران والجبيل والمدينة المنورة وينبع وأبها، كما نظّمت معارض دولية في كل من باريس وجنيف ولندن، حتى أصبح لها حصيلة 18 معرضاً شخصياً، و6 معارض جماعية، عُرفت صفية من خلالها فنانة التراث السعودي محلياً ودُولياً.

وفي عام 1995 أسست «دارة صفية بن زقر»، بعد رحلة 30 عاماً على طريق الفن التشكيلي، وهي تضم لوحاتها ومقتنياتها الفنيّة، كما تحوي مرسمها ومكتبتها الخاصة. وفي عام 2000 صدر كتابها «رحلة عقود ثلاثة مع التراث السعودي»، وفيه أوضحت أهداف الدارة ونشاطاتها بعد رحلة 30 عاماً من العمل المتواصل، والمثابرة من أجل توثيق هذا التراث الغني بشكل جمالي وبنّاء.